الفصل السادس عشر

الطرق العامة فى التدريس

طريقة دراسة القرآن الكريم :

كان الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة يحفظون سورا قصيرة من القرآن الكريم بطريقة التلقين بأن يلقنهم سيدنا بعض السور الصغيرة فيقرؤها أمامهم ويكرروها معه عدة مرات حتى يحفظوها عن ظهر قلب . وكان سيدنا يستعين بالعريف وكبار التلاميذ فى تعليم المبتدئين من الاطفال . ويؤخذ على هذه الطريقة عدم الاهتمام بشرح معانى السورالتى تحفظ فالاطفال كانوا يحفظون بطريقة التكرار من غير فهم للمعنى للتبرك بالقرآن الكريم وبث الروح الدينى .. روح الصلاح والتقوى فى نفوس النشء من الصغر ولاعتقاد المعلمين أن مرحلة الطفولة خير وقت للحفظ الآلى والتذكر . يقول الشاعر العربى :

ارانى انسى ماتعلمت فى الكبر ولست بناس ماتعلمت فى الصغر

وفى هذا القول نظر .

والقرآن الكريم أثمن ذخيرة فى نظرنا نحن المسلمين ، يجب تذكرها والاحتفاظ بها دائما والنقد الذى يوجه الى هذه الطريقة فى التربية الحديثة . .الحفظ من غيرفهم للمعنى ، فالتربية اليوم تتطلب تفهيم المعنى هذا من قول ابن قتيبه الدينورى فى كتاب عيون الاخبار . «اول العلم الصمت والثانى الاستماع . والثالث الحفظ . والرابع العقل » .

ولقلة من كان يعرف الكتابة فى العصر الاسلامى الاول كان المسلمون يعتمدون على ذاكرتهم اكثر من اعتمادهم على الكتابة . ولهذا عنى الادباء والشعراء من المسلمين بحفظ ما يسمعون من الأدب والشعر . وقد عرف العرب بالحفظ وقوة الذاكرة للمرانة المستمرة والتعود على الحفظ . وكانوا يذكرون :

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما حواه الصدر

ويقولون :

اذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع

أأحضر بالجهـــل فى مجلسى وعلمى فى الـكتب مســتودع

ويقولون :

استودع العلم قرطاسا فضيعه وبئس مستودع العلم القراطيس

فالعرب قبل الاسلام قد اعتادوا الحفظ قبل فهم المعنى ويبـدو هذا من قول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب الاخبار : « أول العلم الصمت والثانى الاستماع . والثالث الحفظ . والرابع العقل . والخامس النشر »

وهناك من علماء الاسلام من رأى فهم القطعة قبل حفظها والبـدء بادراكها تمام الادراك قبل استظهارها ، كابن المبـارك حيث قال : أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر .

واننا نحبذ رأى ابن المبارك فى أن يبدأ الطفل التعلم بالاستعداد له والاصغاء الى الدرس والانتباه له حتى يفهمه ، ثم حفظه عن ظهر قلب ثم العمل بالعـــلم ثم نشر ما تعلمه . وقد نقد ابن خلدون فى مقدمته طريقة حفظ القرآن قبل تفهيم التلاميذ ما يحفظونه منه .

ولاجادة التدريس جعل مدرس خاص لتحفيظ القرآن الـكريم وآخر لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والخط . وقد عنى المسـلمون عناية كبيرة بالخط . واتقنوه اتقانا تاما وعدوه فنا من الفنون الجميلة . ولكى لا تكون الآيات القرآنية معرضة للمحو من الألواح كانوا يفضـلون اختيار بعض الحكم والأبيـــات الشـــعرية فى تعليم الخط والقراءة والكتابة .

تدريس الشعر للأطفال :

لفلاسفة الاسلام طريقة خاصـة فى تدريس الشـــعر فقد كان المدرسون يختارون للاطفال الاشعار السهلة فى العبارة واللغة القصيرة الأبيات الخفيفة فى الوزن كى يســـهل عليهم حفظها وفهمها . وكانوا يراعون فى اختيارها ما قيل فى مدح الأخلاق النبيلة ، وذم الرذيلة كمدح الكرم وذم البخل والحث على حب الوالدين واطاعتهما . وفى هذا المعنى قال ابن سينا : « وينبغى أن يروى الصبى الرجز (١) ثم القصيدة فان رواية الرجز أسهل وحفظه امكن لأن بيوته اقصر ووزنه أخف . ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير

(١) الرجز : ضرب من الشعر أبياته قصيرة واوزانه خفيفة .

ذلك من مكارم الأخلاق (١) وقد حذروا من تعليم الاطفال أشعار الغزل والغناء » .

فدراسة الشعر كانت دراسة مباشرة للأخلاق وسبيلا من سبل بث الأخلاق الكريمة وقد فكر علماء الاسلام فى أثر الأوزان الشعرية فى نفوس الاطفال وغرس الأخلاق الحسنة بتلك الدراسة . وفى حفظهم للشعر الخلقى السهل العذب كانوا يربون الأطفال تربية جمالية ويبثون فى نفوسهم الذوق الفنى الجميل ويشبعون ميولهم الغريزية للناحية الموسيقية بالشعر الموسيقى وان لم يذكروا ذلك فى كتابتهم . ولا يمكننا ان ننكر انهم لم يراعوا فى اختيارهم ما يميل اليه الأطفال من شعر حول الحيوان والأزهار والقصص .

التدريس فى المراحل العالية :

١ ـ اللحاق بالمعاهد العليا بدون قيود أو شروط :

تبدأ مرحلة التعليم العالى فى التربية الاسلامية بعد سن البلوغ . وقد يدرسها الطالب فى خمس سنوات وقد يستمر فى دراسته العالية أكثر من عشر سنوات . ولم يكن اللحاق بالمعاهد العليا مقيدا بشروط خاصة ، بل كانت المعاهد ميسرة لكل راغب فى التعليم متعطش للعلم قادر على الدراسة فيدرس ما يشاء من العلوم ويختار من يريد من العلماء ويظل منتظما فى حلقات العلم مستمرا فى تلقيه مادام لديه رغبة فى العلم وميل للبحث ، وقد يتلقى الطالب العلم عن شيخه فى داره أو فى اى مكان . وكان المسلمون يقصدون المسجد للعبادة أو للدراسة فى حين ان المدرسة كان يؤمها المتعطشون للعلم الراغبون فيه وهذا كله يدل على روح الحرية والديمقراطية فى التربية الاسلامية .

٢ ـ الرحيل فى سبيل طلب العلم :

وفى المرحلة العالية كانت التربية الاسلامية تمتاز بالرحلات فى طلب العلم ، والمقصود بالرحلة ان ينتقل الطالب من بلدة الى أخرى لتلقى العلم مباشرة عن استاذ كبير فى مادة من المواد . وقد تستغرق الرحلة احيانا عدة سنوات يتنقل فيها الطالب فى المدن الاسلامية المختلفة يقابل فيها

---

(١) كتاب السياسة لابن سينا ص ١٢ .

مشهورى العلماء ويأخذ العلم من منابعه الأولى . وقد يسافر الطالب الى اقصى بلد اسلامى لطلب العلم على احد الشيوخ ولم يعبأ الطلاب ببعد المسافة أو مشقة السفر والرحلة فى سبيل تلقى العلم . وكثيرا ماكان طلبة طبرستان وبخارى يطلبون العلم فى مصر وطلبة الأندلس يتلقون العلم فى اصفهان . وكان العلماء من المسلمين يعاملون معاملة أبناء امة واحدة هى الأمة الاسلامية مهما اختلفت بلدانهم الأصلية . وكان للرحلات أثر عظيم فى النهوض بالكبار من المتعلمين وفى تربيتهم من النواحى العلمية والعملية والعقلية والاجتماعية والدينية والثقافية .

ويحكى عن ابن الاعرابى ــ وقد كان لغويا مشهورا بالكوفة فى القرن الثانى من الهجرة ــ انه راى فى مجلسه يوما رجلين يتحادثان فقال لاحدهما : من اين انت ؟

فاجاب : من اسبيجاب (وهى مدينة قريبة من الصين فى اقصى بلاد الشرق)

وقال للآخر : من اين انت ؟

فاجاب : من الأندلس .

فعجب لذلك :

وقد شرح ابن خلدون الأسباب فى شدة عناية المسلمين بها حيث قال :

« والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا ان حصول الملكات المباشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . فالرحيل كان لتلقى العلم عن العلماء . ومحاكاتهم فى علومهم واخلاقهم ومعرفة مذاهبهم » .

ويرى الحاج خليفة فى كتابه (كشف الظنون) ما رآه ابن خلدون فى الرحلات العلمية ويزيد على قوله : ان لقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد الطالب فى معرفة الاصطلاحات وتمييزها بما يراه من اختلاف طرقهم .

والحق أن الغرض من الرحلة كان فى الاصل جمع الاحاديث النبوية حينما احس المسلمون بوجوب تدوين الأحاديث وتمحيصها لأنها هامة

جدا من الناحية الدينية ومصدر من مصادر الدين ، فرحل العلماء الى جميع جهات الامبراطورية الاسلامية فى القرن الثانى من الهجرة للاتصال بالعلماء والرواة الذين كانت لهم صلة بمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عاصروا الصحابة فقد ذكر عن ابن شهاب عن ابن عباس انه قال :

« كان يبلغنا الحديث عن رجل من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو اشاء ان ارسل اليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ولكنى كنت اذهب اليه فأقبل على بابه حتى يخرج الى فيحدثنى (١) » .

وقال يحيى بن سعيد : انى كنت اسير الليالى والايام فى طلب الحديث الواحد .

ثم استمرت الرحلات فى سبيل طلب العلم حتى صارت من دعائم التربية الاسلامية وقد استفاد الطلبة من السفر وزيارة البلاد المختلفة والاتصال بالائمة والعلماء والادباء والفضلاء ... كثيرا من التجارب العملية المفيدة والآراء العلمية الثمينة .

٣ ـ حرية الطلاب والاساتذة :

لم يكن فى المعاهد الاسلامية فصول لكل فرقة من الفرق الدراسية ولا نقل من فرقة الى اخرى أو من صف الى صف وكان الطلاب احرارا فى حضور دروسهم واختيار اساتذتهم وكان الاساتذة احرارا فى تحديد عدد المحاضرات التى يلقونها كل اسبوع واختيار الأوقات التى يريدونها بعد صلاة الفجر او عند شروق الشمس او بعد صلاة الظهر او بعدصلاة العصر او بين المغرب والعشاء . وكان بعضهم يلقى محاضرة كل يوم وبعضهم يلقى محاضرة كل اسبوع . وحينما تبدأ الصلاة تتوقف المحاضرات حتى ينتهى المصلون من الطلاب والاساتذة من صلاتهم . وبعد الانتهاء من الصلاة تبدأ المحاضرات فى حلقات . ولكل حلقة استاذ خاص يقوم بالتدريس للطلبة الذين يحضرون فيها .

٤ ـ تنوع اساليب التدريس وطرقه فى المعاهد العالية :

كانت اساليب التدريس فى المعاهد الاسلامية العالية متنوعة وطرقه متعددة ولم يقتصر الاساتذة على طريقة خاصة فى تدريسهم

---

(١) ارجع الى جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى جـ ١ ص ٩٤ .

فاحيانا كان العالم من العلماء يملى درسه على الطلبة من ذاكرته وليس فى يديه مذكرات أو كتب يملى منها وهذا يدل على تمكنه من مادته . واذا كان عددهم كبيرا اختار واحدا أو اثنين من المعيدين لاعادة ما أملاه عليهم كى لا يفوتهم شيء مما يقوله .

قال ابو العباس ثعلب عن ابن الاعرابى اللغوى المعروف بالكوفة : شاهدت مجلس ابن الاعرابى وكان يحضره زهاء مائة انسان . ولقداملى على الناس ما يحمل على جمال ولم يكن بيده كتاب (١) وهذا يدل على غزارة مادته وسعة اطلاعه وثقته بنفسه .

★ وقد قيل ان السديد محمد بن وهبة الله كان اماما فى عصره وتولى الاعادة (اى كان معيدا) بالمدرسة النظامية ببغداد وان الشيخ ابا اسحق الشيرازى الفيروزابادى قد صحب القاضى الطبرى وكان ينوب عن الطبرى فى مجلسه وتدريسه ورتبه معيدا فى حلقته .

واحيانا كان الطالب يقرأ قطعة صغيرة من الكتاب الذى يدرسه الاستاذ للطلبة لتكون مقدمة لدرسه ثم يبدأ الأستاذ بشرح معنى تلك القطعة وتوضيحها والتعلق عليها حتى يفهم الطلبة المقصود منها . ويتبع المدرس فى طريقته الخطوات الآتية :

أولا : يبدأ بقراءة النص وشرحه .

ثانيا : يأتى المدرس بالآراء المختلفة فى الموضوع ويوضحها .

ثالثا : يدلى برأيه الخاص فى الموضوع ويؤيده بالدليل .

رابعا : يوازن بين موضوع البحث والموضوعات المشابهة له .

خامسا : يعطى الطلبة الفرصة فى ان يسألوا ما يشاؤن من الأسئلة ويجيب عنها ولا يترك درسا حتى يفهمه الطلبة كل الفهم .

وكان المعلمون من المسلمين يلقون دروسهم بهدوء ويعملون بكل اخلاص ويتحلون بالآداب العالية والاخلاق الكريمة لايحقدون على غيرهم ولا يظلمون سواهم ولا يفكرون فى النواحى المادية الخاصة بالدرجات والعلاوات والترقيات لأنهم زاهدون قانعون بالضروريات للمحافظة على الحياة .

---

(١) ارجع الى كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٦٢٣ .

٥ ـ طريقة المحاضرات :

كان المحاضر يعد محاضرته ويدونها نقطة نقطة ثم يتكلم عن كل نقطة كلام استاذ متمكن من مادته فيدون الطلبة ما يفهمونه من الآراء في مذكراتهم الخاصة ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم ويقولون ما لا يفهمون بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح. ولم يكونوا ممن يعتمدون على ما في أيديهم من مذكرات فاذا أخذت هذه المذكرات منهم وقفوا حيارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئا لطلابهم . فقد كانوا علماء حقا واسعي الاطلاع لا يحتاجون الى النظر في كتب أو مذكرات في أثناء المحاضرات .

وقد شرح ابن خلدون طريقة المحاضرات في مقدمته ونقد اعتماد الطلاب على المتون والمختصرات في العلوم وشجع الاسهاب والسهولة في الموضوعات ثم ذكر آراء ثمينة لا تختلف عن الآراء في التربية الحديثة اليوم نلخصها فيما يلي :

لكي ينتفع الطالب بالمعلومات يجب الا يتلقاها المتعلم مرة واحد بل يتدرج معه فيها ويأخذها شيئا فشيئا . وينبغي ان يبدأ المحاضر درسه باعطاء فكرة عامة مجملة عن الموضوع يلخص فيها أصول الباب وهي النقط الرئيسية في محاضرته مع تجنب التفاصيل المعقدة التي يصعب على الطلاب فهمها في بدء الدرس .

ويراعي في ذلك قوى عقله (عقل الطالب) واستعداده لقبول ما يرد عليه ثم يعود ثانية الى الموضوع فيرفعه في التلقين عن تلك المرتبة الى مرتبة أعلى منها يستوفي فيها الشرح والبيان . وينتقل من الاجمال الى التفصيل ويذكر للطالب نواحي الخلاف في الموضوع وأوجه النظر . ويعيد الدرس مرة ثالثة . يعالج فيها الموضوع بطريقة أكثر عمقا فلا يترك عويصا ولا بهما ولا صعبا الا وضحه وفتح له مغلقه (١) .

فابن خلدون ينادي بالتدريج في اعطاء المادة حتى يفهم الطلبة الدرس ويتضح في نفوسهم . ويتفق مع علم النفس في اعطاء المتعلم فكرة عامة اجمالية عن الموضوع ثم الانتقال الى تفصيل كل نقطة من الدرس بعد الاجمال . ويرى مراعاة استعداد الطالب من الناحية العقلية فالذكي يفهم المحاضرة بمجرد استماعها للمرة الاولى ومن كان فوق المتوسط في الذكاء

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف ص ٤٨٩ .

يفهمها بعد استماعها مرتين والمتوسط يدركها بعد الاصغاء اليهـــا ثلاث مرات وينادى بذكر النقط الهامة فى البدء ثم شرحها بالتدريج ثم معالجتها بتعمق فى المرة الثالثة بحيث يفهم كل طالب الدرس فى النهـــاية فهما جيدا ٠

والعبدرى يطالب بفهم الموضوع ودراسة الآراء المختلفة فيه واختيار الراى الصحيح والموازنة بينه وبين غيره ٠ ومن هـــذا كله نرى أن طرق التدريس فى التربية الاسلامية منطقيـــة معقولة ولا تختلف عن الطرق الحديثة فى التربية ٠

٦ ـ طريقة المناظرة :

كانت المناظرة من مميزات طرق التربية الاسلامية ولا ينـكر أحد أثرها فى شحذ الذهن وتقوية الحجة والتمرن على سرعة التعبير والفوق على الأقران وتعويد المناظرين الثقة بالنفس والقدرة على الارتجال ولهـذه الاسباب عنى بها المسلمون عناية كبيرة وعدوها طريقة من طرق التعليم وأشاروا اليها فى كتبهم الأدبية ٠ فقد تناظر الامام الغزالى مع مشهورى العلماء وقادة الفكر فى معسكر الوزير نظام الملك وانتصر عليهم جميعا ٠ وقال السبكى (١) يصف اسماعيل بن يحيى بأنه جبل من العلم ، عـلى جانب عظيم من المهارة فى المناظرة ٠ وقال عنه الامام الشافعى رضى الله عنه : لو ناظر الشيطان لغلبه ٠

وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمنـــاظرة ويوجبون عليهم التمرن عليها ٠ وكان الطالب يخالف أستاذه فى الرأى أحيـانا مع مراعاة التأدب والاحترام ٠

وقد نقد ابن خلدون الركود الذهنى فى بلاد المغرب فىالقرن الرابع عشر الميلادى وعزاه لرداءة الطرق فى التدريس لانها أهملت المناقشـــة والمناظرة فى طريقة التعليم حيث قال :

« وأيسر طرق هذه المملكة فتق اللسان بالمحاورة والمنـــاظرة فى المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ٠ فنجد طـــلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجـــالس العلمية ،

(١) فى كتاب طبقات الشافعية الكبرى جـ ١ ص ٢٢٨ .

سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون · وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم ·

فابن خلدون يرى أن المناظرة فى المسائل العلمية تساعد على فهمها وقدرة التعبير عنها وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقضيه الحاجة · قال الشاعر :

العلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكرة والمناظرة

ويرى الزرنوجى أن قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل فى الحفظ والتكرار ·

وقد كان للعناية بالمناقشة والمناظرة والحوار بالاسئلة والاجوبة اثر حيوى كبير فى طالب العلم جعله يشترك فى أن يعلم نفسه بنفسه ويعتاد حسن التفكير وجودة التعبير والقدرة على النقد والقوة فى الاقناع والاعتماد على النفس وحرية الفكر ·

والحق ان علماء الاسلام كانوا مولعين كل الولع بالمناظرة حتى جعلوها من أنواع التسلية والترويح عن النفس والمتعة الادبية · وانالميل الى العلنية والجهر بالرأى فى التربية الاسلامية قد شجع الطلاب والعلماء على المهارة فى الخطابة والقدرة على الارتجال والتعبير عن الافكار·والخطابة الارتجالية تراث عربى خالد افتخر به المسلمون فى جميع الأجيال · وبالخطابة والمناظرة استغنوا عن كتابة المقالات والرسائل فى كثير من الأحيان ·

ولنذكر هنا على سبيل المثال احدى المناظرات الهامة التى حدثت فى مجلس هارون الرشيد وهى مناظرة لغوية مشهورة حدثت بين سيبويه والكسائى وقد زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : « كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها » .

فقال سيبويه : بل الصحيح : « فاذا هو هى » فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشوب كلامه شىء من كلام أهل الحضر· وكان الرشيد شديد العناية بالكسائى لأنه كان معلما له · فاستدعى عربيا وسأله فقال كما قال سيبويه ·

فقال الرشيد له : نريد أن تقول كما قال الكسائى ·

فقال العربى : ان لسانى لا يطاوعنى على ذلك فانه ما يسبق الا الى

الصواب فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما فيقول العربى : مع الكسائى ٠

فقال العربى : « هذا يمكن »

ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن وحضر العربى وقيل له ذلك فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ٠

فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد (١) ٠ وما كنا ننتظر أن يعامل سيبويه هذه المعاملة وان تغير الحقائق بالتحايل وان يتعصب للكسائى مع أنه كان مخطئا فى قوله ٠ فلما أحس سيبويه بالظلم والتحامل عليه والتعصب للكسائى بدون حق حتى ترك بغداد وخرج منها ٠

ولنذكر أيضا مناظرة أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابه الامتاع والمؤانسة (٢) حيث قال : ان مجلس الوزير ابن الفرات انعقد مرة سنة ٣٢٦ هـ وفيه أبو سعيد السيرافى وابن فراس وأبو بشر متى ورسول ابن طغج من مصر وكثير غيرهم ٠

وقال الوزير : ألا ينتدب منكم انسان لمناظرة متى فى حديث المنطق؟ فانه يقول لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بما حويناه من المنطق ٠٠٠ فاحجم القوم ٠

فقال ابن الفرات : والله ان فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته فانى لأعدكم فى العلم بحارا ٠

فقال أبو سعيد السيرافى : أعذر أيها الوزير فان العلم المصون فى الصدر غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعقول الحادة ٠

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك والانتصار لنفسك راجع الى الجماعة بفضلك ٠

فقبل السيرافى ودارت مناقشة طويلة ممتعة ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى نذكر منها مسألة صغيرة وصلت اليها المناقشة ٠

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٥٤٩ .

(٢) جـ ١ ص ١٠٨ .

قال أبو سعيد السيرافى : ما تقول فى قول القائل : « زيد أفضل الاخوة ؟ » .

قال متى : صحيح .

قال أبو سعيد : فما تقول ان يقال : « زيد أفضل اخوته ؟ »

قال متى : صحيح أيضا .

قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟

فغص متى بريقه ولم يجب .

فقال ابو سعيد أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة المسألة الاولى جوابك عنها صحيح وان كنت غافلا عن وجه صحتها . والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وان كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لى هذا ؟ .

قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس اذا حضرت الحلقة استفدت .

قال الوزير ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسالة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس .

قال أبو سعيد : زيد افضل الاخوة صحيح لأن زيدا بعض الاخوة وأحدهم فكأنك تقول : حمارك أفره (١) الحمير . واما زيد أفضل اخوته فخطأ لأن زيدا ليس بعض اخوته اذ ان اخوته غيره ، فكأنك قلت : حمارك افره البغال .

٧ ـ الطريقة التى كان الطالب يتبعها فى التعلم فردية :

(أ) كان نظام التعليم فرديا فى التربية الاسلامية ، فالطالب يتمتع بقسط كبير من الحرية يختار من المواد الدراسية ما يناسب ميوله الفطرية واستعداده العقلى ويختار العالم الذى يتلقى عنده العلم ويحضر ما يلقيه أستاذه من المحاضرات . ويقرأ المادة ويدرسها ويعدها قبل الدرس حتى يفهمها ويسأل أستاذه فيما صعب عليه منها . وهو حر غير مقيد بنظام

---

(١) الفاره : الحاذق بالشيء والمليح الحسن ومن الدواب الجيد السير .

معين ولا بجدول أوقات دروس وليس مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف الى آخر أو من فرقة الى أخرى ٠

(ب) التعلم بالحفظ والاستظهار :

كان العلم بالحفظ والاستظهار طريقة مألوفة فى الامم القـــديمة والحديثة وكان علمـاء الاسـلام يعنون بحفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عناية كبيرة ٠ فقد ذكر ابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) أن ابن حنبل حفظ عن ظهر قلب ألف ألف حديث ، فى حين ان البخارى قد حفظ وهو صبى ما يقرب من خمسة عشر ألف حديث ٠ وذكر ابن عساكر عن داود الخفاف انه قال : « املى علينا ابن راهويه أحد عشر ألف حديث من الذاكرة ثم اعادها دون أن ينقص أو يزيد حرفا واحدا ٠ وهذا دليل على قوة ذاكرته » ٠ وقال الخليل بن أحمد : « ما سمعت شيئاالا كتبته ولا كتبته الا حفظته وماحفظته الا نفعنى » فلحرص العلماء كانوا يكتبون كل ما يسمعون ويحفظون ما يـكتبون وينتفعون بما يحفظون ولا يمكنهم الانتفاع بما حفظوه الا اذا فهموه جيدا ٠

وقال موفق الدين البغدادى : « واذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه ، وتوهم أن الكتاب قد عدم وانك مستغن عنه لا تحزن لفقده » وهذا يدل على ان الطلاب كانوا يعنون بالفهم عنايتهم بالحفظ وكانوا يحفظون الكتاب بحيث اذا ضاع او فقد استغنوا عنـه ولم يحزنوا لضياعه أو فقده ٠

وفى الادب العربي أمثلة كثيرة لمن كانوا يحفظون القصيدة الطويلة بعد أن يسمعوها من قائلها مرة واحدة لما أوتوا من قوة كبيرة فى التذكر٠

وقد عزا بعض فلاسفة الاسلام القدرة على التذكر الى عوامل نفسية ومادية كالاستمرار فى المذاكرة والاعادة والمراجعة وبذل الجهد فى الدرس والبعد عن المشاغل والآلام والتفرغ للعمل والدراسة فى جو من الهـدوء والايمان ٠ واننا نتفق معهم فى كل ما أبدوه من الاسباب ٠

وان من يفحص عن الامر يجد أن العناية بالذاكرة كانت أثرا من آثار

---

(١) في كتاب تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٤١٢ .

التقاليد الدينية فى بدء الاسلام • ففى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام كان معظم العرب أميين لايقرءون ولايكتبون ، فاعتمدوا على ذاكرتهم كل الاعتماد فى تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتعليمات الدينية والقواعد الاسلامية والأشعار والقصص العربية •

ومع عناية علماء الاسلام بالحفظ والذاكرة لم يهملوا مطلقا العنـاية بالتفكير فيما يحفظ وشرحه وتحليله وفهمه حق الفهم • فقد جعلوا الحفظ وسيلة لا غاية لقلة من يجيد القراءة والكتابة فى بدء الاسلام • وقد نادى الحاج خليفة فى كتاب : « كشف الظنون » باهميـــة الفهم والاستنباط والانتقال من المنطوق الى المفهوم والمدلول • وقال موفق الدين البغدادى : « ولا تظن أنك اذا حصلت على علم فقد اكتفيت بل تحتـاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص » • ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدىء بالحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتصنيف فالبغدادى ينصح المتعلم بالمذاكرة والتفكير والحفظ والتعلم ومناقشة الزملاء للمحافظة على ما تعلمه وتنميته كما ينصح العالم بالتصنيف أو التاليف ليزداد فى بحثه وعلمه وتثبت المعلومات فى ذهنه •

وقال الشيخ برهان الاسلام ناصحا المتعلم : «الا يكتب شيئا لايفهمه لان ذلك يورث كلال الطبع ويذهب الفطنة وينبغى ان يجتهد فى الفهم من الاستاذ ويكثر من التامل والتفكير » •

فهل بعد هذا يستطيع مدع أن يدعى ان المسلمين كانوا يعنون بحفظ المادة ويهملون فهمها ؟ الحق ان طريقة التعليم فى التربية الاسلامية عنيت بفهم المادة عنايتها بالحفظ ولم تهمل الفهم والتامل والتفكير فيها مطلقا • فالطلبة كانوا يكثرون مناقشة أساتذتهم وكانت الأسئلة تنهال عليهم من كل صوب بعد الانتهاء من المحاضرة • وكان العلماء لا يتركون نقطة الا بعد فهمها جيدا • وحرية السؤال كانت مكفولة للجميع • وكان للطالب الحرية المطلقة فى ابداء رأيه وقد يختلف مع أستاذه فى الرأى أو الفكرة • فقد قيل: ان ابن العباس خالف أساتذته فى الرأى وهم عمر وعـلى وزيد بن ثابت وهم من المسلمين المشهورين كما اختلف الامام مالك مع معظم أساتذته فى بعض الآراء ثم خالفه فى الرأى كثير من تلاميذه (١) •

---

(١) ارجع الى كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على جـ ٢ ص ٨ •

٨ ـ الامتحانات :

فى التربية الاسلامية لم يطلب من المتعلمين تادية امتحان بعدالانتهاء من الدراسة كالامتحانات التى تعقد فى عصرنا هذا · وقد ذكر ابن أبى اصيبعة (١) حالة واحدة جاء فيها انه عقد امتحان لأطباء بغداد فى عهد الخليفة المقتدر « فى القرن العاشر الميلادى » بحضرة سنان بن ثابت الذى كان يمتحن الاطباء امتحانا شفهيا ·

وبدلا من الامتحان كان الأساتذة يعطون طلبتهم الأكفاء شهادة أو اجازة ينصون فيها على أن الطالب أتم دراسة منهج معين تحت اشراف الأستاذ فلان ، دون أن يؤدى الطالب امتحانا · والغرض من الاجازة الاقرار بكفاية الطالب واجتهاده وانكبابه على العلم وتفرغه للدراسة والبحث · وكانت الاجازة العلمية شهادة شخصية من الاستاذ لتلميذه وليس فيها عنوان معهد معين · ولا يذكر فيها لقب علمى ·

---

(١) فى كتاب طبقات الأطباء .